الاجتماع

وعلم الشعوب وآدابها وحكمتها
في « الفولكلور » العالمي

للاستاذ محمد لطفي جمعة المحامي

— ٤ —

من أكبر العلماء الذين عنوا بالفولكلور في العصر الحديث الاستاذ جيمس فريزر الذي قضى أربعين عاماً في تأليف كتابه The Golden Bough أو «غصن الذهب» وقد جمع فيه كافة الاساطير والروايات الدينية والقصص القديمة ومعتقدات الشعوب البائدة وأمثالهم وأشعارهم وأغانيهم وهي أصدق صورة لمعقولياتهم فأسدى أجل خدمة لعلماء الاجتماع وصار كتابه النفيس الذهبي حجة وثقة ومرجعاً . وهو لم يستثن انكلترا نفسها بل سرد خرافات أهلها وأساطيرهم وأغانيهم ونوادرهم لانه عدّها فناً من أفنان الشجرة الانسانية خاضعة بحكم الجنس لكل ما سري من قوانين الحياة ونواميس الوجود والاجتماع على سائر الامم

وربما كان في مصر أو في العالم العربي من يخجل من ذكر خرافة أو عادة مستهجنة أو مثل حوشي أو حكمة سوقية مع أن الطوائف العادة أو الخرافة أو المثل تحل موعظة عالية تكونت على مدى الأجيال والقرون

ولا ننكر ان أمم الشرق ما برحت تتدرج في نبذ الخرافات التي لا تلتئم وروح الاسلام كالزار والتنجيم ولا ندعي ان في هذه الخرافات ما يؤسف على نبذه واهماله ولكن لا محيد من القول بأن فيها ما قد يصلح أن يتألف منه بعض التراث الوطني للشعوب الشرقية كأسماء ملوك الجان (شمهورش وشركائه) وطلباتهم وثيابهم وضحاياهم (كالديك الذهبي الابيض والحمل الأحمر والحمامة الزرقاء) ومصوغهم وأصباغ وجوههم وألقابهم (ويعزونها الى اللغة السريانية) والأناشيد التي تنشد على دق الطبول

وان هذه الشعوب التي تشعر الآن أكثر مما كانت تشعر قبلاً بنزعتها الوطنية وحاجتها الى الاحتفاظ بذلك التراث الوطني . لا يمكنها بل لا يجوز لها أن تهمل ما تتألف منه عناصر الأنماط التي جرى عليها السلف في كل يوم من أيامهم

على ان هذه الحياة التي قضاها السلف والاجداد بالأمس وما برحت ماثلة أمام أعيننا بآثارها لن تلبث أن تصبح من ذكريات الغد البعيد ولذلك لم يبقَ من الوقت إلاّ ما يكفي أن نجمع شواهدها وأعلامها للاجيال القادمة قبل أن تتوارى في طيات العدم وتصبح نسياً منسياً . هذا ما عملت به من زمن قديم الامم الغربية بشأن مظاهر حياتها الشعبية وما شرع فيه أخيراً بعض الامم الشرقية كاليابان وتركيا فهي تجمع في متاحف خاصة اتنوجرافية واتنولوجية طائفة من الثياب والحلي والمصوغ والشارات والأوعية والاشياء التي يستعملها الشعب في قضاء مطالبه وتحتفظ بمجموعات من الأقراص الفونوغرافية التي سجلت عليها الأغاني العامية وعداها تسجله وتطبعه من الأمثال والقصص والنكات والشواهد العامية . لأن اللغة العامية هي أعظم مظهر من مظاهر الحياة الشعبية ، فيها وحدها نستطيع أن نعرف ونحفظ أسماء الاشياء والأدوات والآلات والاوعية التي كان يستعملها أجدادنا والأمثال التي ضربوها جمعوا فيها الكثير من الحكمة والخرافات التي يعتقدون بها فتنبيء عن وجهة نظرهم في الحياة . ونزيد على ذلك ان اللغة العامية غنية بالنكات والهازل والنوادر مما لا يمكن أن يوجد ما يعدله رشاقة ودقة في اللغة الفصحى وهذا ما يحمل الممثلين والمؤلفين المعاصرين على الاتجاه الى اللغة العامية ، في التأليف والتمثيل فنجحوا نجاحاً أكبر من نجاح المؤلفين والممثلين الذين يؤدون عملهم باللغة الفصحى . وهذا ما يدعو الصحف الهزلية في انكلترا وفرنسا وأميركا والشرق الى تفضيل اللغات العامية على الفصحى في معظم ما تكتبه وتصوره وتمثل به . ومن الامثلة الحية على فوائد علم الفولكلور ما توصل اليه نيثوفورو ورايس وأدمون لوكار — وكل منهم من علماء الاجتماع الجنائي — من كشف اللغات السرية والرمزية slang, argot وهي اللغات التي يستعملها المجرمون في العالم في التخاطب والتراسل وينقلون بها أهم أسرارهم في اقتراف جرائمهم . وقد وضعت لها قواميس وشرحت وحلّت رموزها فاذا بها مزيج عجيب مدهش من اللاتينية واليونانية والعامية المحرفة عن معانيها الاصلية الى معانٍ جديدة تواطأوا عليها ولها قانون ومفتاح يمكن بهما قراءتها على حقيقتها

وفي مصر يوجد لهذه اللغات مثيل في ما يسمى « سيم » وهي كلمة مأخوذة من لفظ سيما كقول الله « سيماهم في وجوههم » أي علامتهم أو اشارتهم أو دلالتهم . وكذلك الالفاظ التي يتكوّن منها « السيم » هي اشارة أو علامة أو رمز للحقيقة المقصودة

وقد اخترع أصحاب الحرف والصناعات لغات خاصة بهم فالبناءون والنجارون والحدادون وضعوا الفاظاً يعبرون بها عن احجار العمارة والقالب و المهندس والأجرة والطعام والشراب وسرقة الأدوات . كما وضع المجدون وصناع الفرش و الاثاث كلمات ودلالة في

ربة المنزل وأولادها وبناتها وقرب دنوها من محل عملهم للتفتيش عليهم وأسماء الأقمشة وأدوات الصناعة وما يمكن ان يسرق منها وما لا يسرق . وقد وضع احد علماء المصريين قاموساً لهذا النوع من اللغات الرمزية . واسمه عند العرب في اللغة الفصحى الملاحن . وقولك تلحن الى فلان اي تشير اليه اشارة رمزية او سرية . ومرجع الامور في هذا كله الى قيمة القديم السالف . والناس في معظم أحوالهم لا يتجاوزون إلا الى القديم ضمن الحديث ، ولذلك يتقلقون أمام الصور الجديدة في الحياة وتجمع التي لم يألفوها ويتألمون من الصور القديمة التي أصبحت بالية لا تتفق مع روح العصر . وهذا الذي صرف العلماء والادباء في الشرق عن درس الفولكلور وجمع فروعه والاستفادة بشواهده وحكمه

والشرقيون ولا سيما المصريون قلقون اليوم لأنهم مترددون بين الماضي والحاضر وبين الحاضر والمستقبل لا يعرفون اية صورة من صور الحياة يتبعون ولا الى اي قطب من هذين القطبين يتوجهون ، فالماضي يهزم والحياة الجديدة تستعزم . الا ان الماضي العريض أثقل على كاهلهم من المستقبل المجرد وهم سواء أأبوا أم أرادوا سائرون بحكم الضرورة في تيار المدنية الحديثة . ولعل أبدع صورة صالحة لحياة الشرقيين لا تتم الا بتحليل هذا الماضي القديم الى عناصره المقومة . فان الامم القديمة لا تستطيع التجرد من جميع عناصر حياتها السابقة فتبني حضارة حديثة وآداباً جديدة على أنقاض حضارة قديمة يستفيد من أوضاعها وخططها وأنقاضها ويجمع بين الماضي والمستقبل ويضم القديم في الحديث ولكن الصورة المجردة التي في نفسه هي أصل ابداعه

— ٥ —

ونرى في رأي العلامة ماريو جول المؤرخ الاجتماعي العلمي فائدة الجمع بين القديم والحديث في درس النفسيات عن طريق علم الفولكلور الذي انفرد باتقانه والتبحر فيه . فقد كتب انه درس اللغات السرية في فرنسا ووقف على اسرار [illegible] قال : لقد درست في أنحاء باريس عقلية اصحاب الأدب الشعبي . . .

وقد ظهر لي ان ارتقاء الفكر وازدياد المعرفة لا يقترنان بالضرورة بارتقاء في الادب والاخلاق لان حكم المال غير حكم المنطق والمقال . فقد تنمو المدارك العقلية ويتسع أفق الخيال والتفكير وتجمد مع ذلك العواطف وتجف الميول وتذهب [illegible] الرحمة المنبعثة من القلب فليس كل ارتقاء عقلي مصحوباً بارتقاء خلقي وقد تعرف الشيء ولا تعمل به ، وتدرك الواقع ولا تفكر في [illegible] . [illegible] المجرمين و[illegible] [illegible] ومتاجرين في الثروة العامة لقد صادفتهم طويلاً في مختلف أنحاء باريس لادرس أخلاقهم وآدابهم وأسرارهم

ورموزهم . واذا سار المرء زماناً على طريقة الاجرام وفكّر طويلاً في طرائق الخلاص والنجاة بنفسه وبالغنيمة وتخييب امال الشرطة والمتعقبين وتضليل رجال العدالة أصابه ركود في التفكير واضطراب في التصور وتشويش في العمل وقلق في النفس لانه كالحيوان المطارد الذي يقتفي أثره الطاردون ، فتجمد عاطفته ويصير كالآلة التي تتحرك بارادة غيره لا بنفسه فيخسر صفقته وينحط الى ادنى دركات الحيوانية ويخلو من العاطفة وتنقلب صور الطبيعة والحياة في نظره الى صورة واحدة . فلا ابتسام على ثغر الزهر ولا نور في أشعة الشمس ولا أمل في حمرة الشفق كأن هذه الالوان قد تبدلت او تقلبت الى لون قاتم غامض كما تتبدل ألوان الاشياء التي رسمتها أشعة الشمس بظلالها فتصاعت العذوبة من الحياة وأشبهت الموت

« وقد تجلت لي هذه الظاهر في حياة المجرمين وتدبير جرائمهم وتنفيذها ووسائل الفرار . انهم يتصورون بالتخمين والحدس معنى الجريمة وخيالاً عاماً مبهماً يقلبونه بالتدريج الى شكل حسي وصورة مشخصة او مجسدة فرئيس العصابة يدرك النهاية قبل البداية ثم يعود ورفاقه — ولاسيما الاقوياء في التفكير منهم واصحاب الاخيلة الخصيبة — الى المبدإ فيفكرون في الوسائط والوسائل التي يمكن الانتقال بها شيئاً فشيئاً الى الغاية . وعند ذلك تصبح الغاية المجردة وهي القتل او الحصول على المال او خطف الشخص او المؤامرة الجنائية مشخصة مجسدة ثم يجمعون العدد والآلات والثياب ووجوه التنكر ويستعرضون الحوادث المقبلة ويصورون الواقعات المحتملة والمواقف الحرجة والاخطار التي يستهدفون لها ويصفون الاشخاص والأماكن ويحددون الاوقات تحديداً دقيقاً يستطيعون به تحقيق الغاية التي يتطلعون اليها وكثيراً ما يرسمون الخرائط والخطط قبل حدوثها فتأتي منطبقة على الواقع الذي سوف يجري ويقع

«ثم يضعون الالفاظ والاسماء التي يتعارفون بها ويهتفون بها في أوقات العمل وأوقات الخطر ثم الاناشيد التي ينشدونها بعد الفوز بالغنيمة والنجاة من الخطر ، حتى اصناف الطعام والشراب التي يتمتعون بها ويحتفلون بها بعد النجاة . فانظر الى سعة الخيال وقوة التصور وقدرة التأليف وارادة التنفيذ الباعثة على النجاح عند هؤلاء المجرمين

« فالوقائع التي تخيلوها والاستعدادات التي أعدوها والالفاظ التي وضعوها والجمل التي ركبوها مقتبسة من حياتهم ووسط المجتمع الذي نبذوا انفسهم لمحاربته انتقاماً من المظالم الحقيقية او الوهمية التي اعتقدوا انها واقعة عليهم . ولولا وجود هذه العناصر ما امكن التركيب » اهـ كلام هذا العالم الفحل الذي لم يتغلغل أحد قبله في تحليل نفسية المجرمين بفضل اتقانه علم الدكتور وعلم النفس الاجتماعي في شتى الطبقات الانسانية